

بين يدي الكتاب الأستاذ محمد يتيم

طلب مني الأخ محمد الحمداوي رئيس حركة التوحيد والإصلاح أن أكتب كلمات تقديمية بين يدي هذا الكتاب . وقد حرصت على ذلك نظرا لأني أعلم أنه يمثل إضافة نوعية للمكتبة الحركية الإسلامية خاصة ، والمكتبة الإسلامية المعاصرة عامة التي أصبح من النادر أن تجد فيها إضافات نوعية .

كنت أدرك منذ الوهلة الأولى أن التقديم لكتاب - قد يكون صغيرا في حجمه ، ولكن كبيرا في موضوعه ومضمونه - ليس بالأمر الهين أو السهل . إن ذلك يقتضي قراءته وإعادة قراءته بابا بابا ومطلبا مطلبا ، وذلك يتطلب تركيزا كبيرا بالنظر إلى كثافة الأفكار والأطروحات التي يتضمنها الكتاب ، والتي تختصر تحولات منهجية وفكرية ومراجعات كبيرة تمت عبر عدة مراحل في الحركة التي يرأسها .

الكتاب الذي بين أيدينا من جهة ثانية ليس من الكتابات السهلة التي سادت في الساحة الإسلامية في وقت من الأوقات ، إن الأمر يتعلق بكتاب يجمع إلى الفكر الإستراتيجي ، خبرة متراكمة ليس فقط لدى كاتبها ، ولكن لدى الحركة التي عاشها الأستاذ الحمداوي بكل كيانه منذ أن التحق بالحركة ، وفي مختلف مستوياتها التنظيمية إلى أن أصبح من رموز الهندسة التنظيمية للحركة ، وهندسة التخطيط سواء في صيغته الأولى ، أو في صيغته المتقدمة أي : التخطيط الإستراتيجي .

الكتاب يجمع إلى الخبرة الميدانية والمعاناة اليومية ، معاناة البناء الفكري والتنظيمي والسعي إلى تجسيد مفهوم الرسالية الذي تبنته الحركة في واقع تربوي وسلوكي وتنظيمي وهيكلية ونضالي على مختلف الجبهات .

الكتاب يتضمن عمقا فكريا ربما فاجأ ، وسيفاجئ من كان لديهم أدنى شك ، بأن الأستاذ الحمداوي لم ينتخب على رأس حركة التوحيد والإصلاح فقط بسبب أزمة استقالة الدكتور أحمد الريسوني ، ولانشغال بعض القيادات والرموز التاريخية بالعمل السياسي ، وإنما أيضا لأنه لا يقل كفاءة علمية وفكرية ، وقدرة على النظر التركيبي والتوجيه الفكري ، ناهيك عن الملكات التنظيمية وملكات التخطيط ، والقدرة على المتابعة التي لم تستغن عنها الرموز المذكورة سواء قبل مشروع الوحدة أو بعدها .

ينتقل بنا الكتاب عبر ثلاثة أبواب محكمة البناء لبسط مفهوم الرسالية ، وآفاق المشروع المجتمعي لحركة التوحيد والإصلاح ، ومفهوم الاستيعاب الرسالي وآلياته وعوائقه ، وبسط مقتضيات المدافعة المجتمعية وتحديات الانفتاح الرسالي . ويقف بنا على أحد أكبر الإبداعات المعاصرة في نظرية العمل الإسلامي المعاصر التي ما فتئت تثير اهتماما من الحركات الإسلامية ، بل أخذت تستقطب بعض التجارب السياسية التي برزت في المغرب أخيرا ، وتسعى إلى منافسة حركة التوحيد والإصلاح .

في هذا الصدد يقف الأستاذ الحمداوي ليبسط لمفهوم أساسي تبلور لدى الحركة ألا وهو «وحدة المشروع عوض وحدة التنظيم» مستعرضا في عجالة

للتحولات الكبرى التي عرفتها حركة التوحيد والإصلاح ، أي التحول من المنهج الانقلابي ثم المنهج الاستبدالي نحو المنهج الرسالي ، عبر مسار من المراجعات الفكرية والتنظيمية والاستراتيجية .

ورسالية المشروع تعني تلك الجهود المبذولة فكريا وعمليا من أجل جعل مشروعنا الإصلاحى ملكا للمجتمع ، وما يقتضيه ذلك من دفع منطق الطائفية والتمركز حول الذات ، وتعزيز فلسفة وحدة المشروع عوض وحدة التنظيم .

ويعرج المؤلف أيضا على ما سماه بـ « المجال الحيوي للمشروع المجتمعي » معرفا بدوائر الفعل والتأثير لمشروعنا داخل المجتمع بكل فئاته أفرادا وتنظيما وتيارات ، مؤكدا على تجاوز ثنائية «الديني» و«اللا ديني» ، نحو استيعاب أكبر للديني ضمن مجال أوسع ، خاصة وأن التدين المجتمعي في تزايد مطرد ، وأن توجهات «اللا تدين» في تراجع مستمر ، وإن كانت أكثر جرأة وأوفر إمكانيات ، وهو ما سيعبر عنه في موقع لاحق من الكتاب بما اصطلح على تسميته بـ « ما بعد الجبهة الدينية » .

إن مكونات المجال الحيوي الأصلية لمشروع الحركة - حسب الحمدادي - تقوم على ثلاثية الدعوي والمدني والسياسي ، أي الثلاثية المشكلة لمشروعنا المجتمعي بأبعاده الكبرى . وأهم ما يميز البعد الحركي والدعوي في مشروعنا المجتمعي ، هو أن شمولية المقاصد والأهداف على مستوى التصور وشمولية مجالات عمل الحركة لا تعني أن تنظيم الحركة هو الذي سيتولى تحقيق

الوظائف المتصلة بذلك التصور الشمولي وبتكاملية مجالاته ، بل إن المطلوب أن نعتمد مفهومًا يكثف مختلف تلك الأنساق والبنىات ضمن نموذج حركي مرن ، وهو ما يسمى لدى الحركة بـ «الوظائف الأساسية» والمجالات المتخصصة» .

وفي الارتباط بذلك يطرح الأستاذ الحمداوي سؤالاً مردودية الأعمال المتخصصة بشكل عام و«العائد الحضاري» لفعل المشاركة السياسية وما يرتبط بها من أسئلة من قبيل : كم أطرت دعويًا المشاركة السياسية من شابٍّ وشابّة؟ وكم استثمر دعواتها في تربية «المشاركين سياسياً» و«المصوتين انتخابياً» وتركيز أخلاقهم وتنمية أذواقهم وتسديد أفكارهم؟ هل بذل دعواتها الوقت الكافي والجهد اللازم للاستثمار الدعوي في المكاسب «البشرية» للمشاركة السياسية؟ بصورة أخرى ، فإن ذلك يقتضي طرح سؤال الرسالية على مستوى العمل السياسي ، ومدى استصحاب «البعد الدعوي» لمشاركتنا السياسية ، وإعطائها زخماً بنائياً أكبر ، يمكنها من الاستمرار فيما بعد المد الجماهيري الذي تحقّقه ، ولن يكون ذلك إلا بإيجاد خيط رفيع بين «التدبير اليومي» لفعل المشاركة ، و«التأطير الحضاري» لتناجها المقدرة .

إن فعل المشاركة السياسية - كما نتطلع إليه يؤكد المؤلف - يقاس بحجم «النجاح الدعوي» أكثر مما يقاس بحجم «النجاح الانتخابي» ، فهذا الأخير قد ينتهي مع انتهاء «لحظة المد» .

أما المبحث الثاني المتعلق برسالية التنظيم فقد خصصه الكاتب لجملة من

المراجعات في مفاهيم وأبعاد التنظيم ، وبناء على ذلك إعادة النظر في مقولة ما بعد التنظيمات

في هذا الصدد أبرز المؤلف فكرة نوعية في تصور حركة التوحيد والإصلاح
الآ وهي : وحدة المشروع عوض وحدة التنظيم .

وبناء عليه فلا مجال للكلام عن أن العدالة والتنمية هي هو الجناح السياسي
لحركة التوحيد والإصلاح ، ولا أن الحركة هي الدراع الدعوي للحزب ، بل
هما شريكان في مشروع أوسع .

إن أطروحة «التنظيم الرسالي» تبعاً لذلك تجعل الولاء للمشروع الخادم
للمجتمع متقدماً على الولاء للتنظيم ، من خلال جعل عمل التخصص في
مجاله قائماً على منطق الانتماء للمشروع ، وليس بكونه فرعاً للتنظيم المركزي
المحوري .

ومن مستلزمات ذلك توسيع رهان «النحن» وتجاوز الضيق للانتماء
والقطع مع فكرة التنظيم الجامع ، الذي يحمل لواء تمثيل جماعة المسلمين ، لقد
قلنا - يقول المؤلف - في بداية المراجعات : «نحن لسنا جماعة المسلمين ، ولكننا
جماعة من المسلمين» ، وهذا التحول في فكرنا وفي نظرنا للمجتمع ، سمح -
جزئياً - بالقطع مع الفكر الطائفي والفئوي ، وانتهى إلى إبداع مقولة التنظيم
الرسالي الذي يراهن أساساً على الأثر أو العائد المجتمعي للفعل الدعوي ، أكثر
مما يراهن على التجميع والتعبئة والحشد البشري

ويعرج المؤلف في العلاقة بالنحن على قضية الاختلاف داخل الجماعة

الواحدة حيث يؤكد على أننا قد لا نستطيع أن نلغي النزاع والخلاف داخل الجماعة ، ولكن نستطيع حتماً أن نتجنب كثيراً منه بالتنبيه على مخاطره ومفاسده قبل أن يقع ، وعند وقوعه نخفف من أضراره ونستعين بالصبر لتدبيره وتجاوزه .

يعرض المؤلف بالتحليل والنقد إلى خطاب «ما بعد التنظيم» مؤكداً أن هذه المقولة تنتهي بالضرورة إلى ظهور تنظيم جديد ، حتى وإن لم يكن في شكله الهيكلي المعتاد تماماً ، كما أن خطاب الصحوة في بداياته كان يتبنى مقولة «ما بعد المذاهب» ، من منطلق أن المذهبية الفقهية تحيل على التعصب ، والانغلاق ، وتفرقة الأمة وتفكيك وحدتها ، فكان التبشير بـ«بعثة جديدة» تتجاوز مآزق المذهبية ، وتؤسس لـ «لا مذهبية» ترتبط مباشرة بالكتاب والسنة اقتداء واتباعاً ، لكن هذا الخطاب قد تحول إلى ضده ، فكان مسار البحث عن بديل للمذهبية وقوعاً في مذهبية أخرى ، لا هي حافظت على وحدة وتماسك المجتمع ، ولا هي قدمت حلولاً للسلبات الأولى .

ينتقل بنا المؤلف في الباب الثاني لعرض آليات وعوائق الاستيعاب التصوري والتنزيل العملي للرسالية ، حيث يحدد خمس آليات تحقق هذا الاستيعاب . فالاستيعاب يحتاج أولاً إلى الآلية التصورية التي تعمل القيادة على تعميقها وشرحها للأعضاء ، ويحتاج ثانياً إلى الآلية المنهجية التي تقوم على خلق فضاءات فكرية للنقاش والتساؤل والتفكير النقدي في المشروع ، ويحتاج ثالثاً إلى الآلية التربوية التي تركز على قيم المسؤولية والفعالية والإتقان في

الإنجاز ، ويحتاج رابعا إلى الآلية التدافعية التي يستصحب المشروع من خلالها التحديات الكبرى بروح واقعية ، ويحتاج خامسا وأخيرا إلى الآلية التخطيطية التي تساعد على استثمار الفرص وابتكار الحلول والبدائل .

أما عن العوائق التي يتعين تجاوزها فمنها الارتهان لمنجزات «مرحلة التأسيس حيث يساهم منطق «نموجية الماضي» في تعطيل حواس إدراك الحاضر وفرصه وعناصر قوته ، وأيضا في تعطيل قدرتها على التكيف مع المعطيات الجديدة للدعوة في مسارها الجديد .

ومنها آفات النقد من أجل النقد . فالدخول في مسار التحول قد تصاحبه بعض المشاكل والأعراض الجانبية التي تشوش على المضي فيه ، والتي يتخذها الرافضون للتغيير أو المتخوفون منه ، ذريعة للدعوة إلى التراجع .

أما الباب الثالث فخصصه المؤلف لقضية المدافعة المجتمعية وتحديات الانفتاح الرسالي والمدافعة المجتمعية – حسب الأستاذ الحمدادوي – ليست مدافعة صراع يسعى من خلالها كل طرف إلى إنهاء الآخر بنويًا ، أو الصراع العدمي الذي يقرر فيه أحد الطرفين أنه إن خسر فيجب أن يخسر الجميع معه ، بل المقصود عندنا هو التدافع الإيجابي ، والتنافس الشريف الذي يسعى فيه الجميع إلى تحقيق النجاح بالنظر إلى أهداف موضوعية تتصل بالمجتمع والأمة والإنسانية ، وليس بالضرورة وفق حتمية مغالبة الخصم والقضاء عليه .

إن الانفتاح الذي يحقق أبعاد الرسالية في توجهات الحركة الإسلامية ، يحتاج إلى تعميق واستيعاب مسار يؤمن بالتعددية ، ويوسع من دائرة الـ«نحن»

ومن مفاهيم الجماعة والانتماء ، ويمتنع في المقابل عن منطق التصنيف الإقصائي للمجتمع ، أو التصنيف التعبوي ، حيث يصير المعيار في نجاح التنظيم هو مدى مساهمته في خدمة المجتمع وحل مشكلاته وتبني همومه وقضاياها ، ومدى استفادة المجتمع واستفادة الأمة من أعمال ومبادرات هذا التنظيم أو تلك الجماعة .

وهكذا يتناول المؤلف العلاقة مع الحقل الديني منتقدا مفهوم الجبهة الدينية الذي هيمن على الوعي الحركي بخصوص العلاقات الممكنة ضمن هذا المجال ، داعيا إلى مراجعته مراجعة جوهرية تطرح إشكالية الإصلاح ضمن رؤية تفاعلية للدفاع عن جميع المتضررين من الفساد والإفساد ، والاهتمام بباقي الفاعلين مؤكداً أن الاشتراك في المرجعية لا ينبغي أن يكون منتهى العلاقة ، بل ينبغي أن يكون مدخلها ومقدمتها للتعاون في القضايا المجتمعية الكبرى ، وما نسميه الأبعاد الجديدة للعلاقة بين الفاعلين في الحقل الديني .

ويعرج المؤلف على آليات تدبير الاختلاف بين الإسلاميين أنفسهم تنظيمات وطرقا صوفية على اعتبار أن الحوار والتدبير العقلاني للاختلاف حاجة موضوعية وضرورة حضارية ، للحيلولة دون سيادة ثقافة التخوين والتشكيك .

وفي سياق تناول العلاقة مع الآخر يؤكد أن تحديات الانفتاح في المجال الحركي الإسلامي تطرح التفكير في منطلقات جديدة للتفاعل مع الآخر ، أي المكونات التي تشتغل من خارج المرجعية الدينية ، أو تعتمد تأويلا علمانيا

للدين وتطرحه كإشكالية فردية ، أو المكونات التي تستبدل بالمرجعية الإسلامية مرجعية كونية تعلي من شأن المواثيق الدولية على حساب الخصوصية الثقافية المحلية .

كما تضم ضمن تيارات المنافسة الصراعية ، والنزوعات الاستثنائية التي لا تكتفي برفض الدين باعتباره مرجعية في الفعل التاريخي ، بل تتعدى ذلك إلى بذل الجهد من أجل «اقتلاع جذور» العاملين من أجله .

وهكذا يتضح أننا أمام كتاب دسم ، يجمع بين دفته عشرات من الأفكار النوعية التي تعتبر عصارة تجربة حركية كاملة ، واستقراء تاريخياً ضمناً للنتائج والمآلات التي آلت إليها عدة تجارب في الساحة الإسلامية والعربية نجاحاً وإخفاقاً ، بل إحالات على التجربة الإنسانية الطويلة والتجربة الإنسانية المعاصرة ، ويعكس انشغالا يومياً بمحاولة الانتقال بالتجربة الحركية إلى طور جديد ، طور يرصد المكتسبات ويستثمر عناصر القوة ، ويستعد بالوعي والعمل لمواجهة الإكراهات والتقليل من آثار عناصر الضعف بل ربما تحويلها إلى عناصر قوة ، مع التأكيد على أهمية الاستيعاب القيادي والدافعية الذاتية والتفكير الجماعي والتفكير النقدي الاستباقي والمدافعة المجتمعية وأهمية الانفتاح ، ومراجعة مفاهيم النحن والآخر ونقد بعض الآليات الفكرية التي تم إنتاجها من قبل الحركة الإسلامية مثل الجبهة الدينية وطرح مفهوم مبتكر هو ما بعد الجبهة الدينية ، كل ذلك من خلال مفهوم الرسالة المنطلق من إعادة تحديد رسالة الحركة ودورها في المجتمع .

إنه كتاب جدير بالقراءة ، ولكنه أيضا جدير بالدراسة ، لأنه حلقة من الحلقات التي أطلقتها الحركة تحت عنوان : إطلاق حركية فكرية جديدة سواء من خلال ندوة السؤال ، وفي اتجاه الانتقال من طور الثقافة الشفوية إلى طور التأليف ، الذي قدم الأستاذ الحمداوي دليلا ملموسا على أن حركتنا تتوفر فيه على طاقات خلاقة فيه .

والمأمول أن يشكل هذا الكتاب منطلقا لترسيخ ثقافة التأليف والكتابة وثقافة القراءة ، ليس بمعناها البسيط ، بل إلى قراءة بمعناها النقدي والتناسي ، أي : أن يكون الكتاب مادة لندوات ومحاضرات وتوقيعات ، وأن يتم الاحتفاء به بما يناسب قيمته العلمية والتاريخية .

محمد يتييم

سلا ٢١ شوال ١٤٢٩ هـ

موافق ٢١ أكتوبر ٢٠٠٨ م